الفصل الرابع

مِنتخباتٌ مِنْ آثارِ الجَاحِظ

١ ـ آراء الجاحظ فى الكتاب والتأليف والترجمة

المؤلف المحسود

إنى رُبما ألفْتُ الكتاب المُحْكمَ المتْقَن فى الدين والفقه والرَّسائل والسِّيَرة والخطب والخَراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطَّعْن فيه جماعة من أهل العِلْم ، بالحمد المركَّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاحته[1] . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كاذن الكتاب مؤلَّفاً للملك معه القدرة على التقديم والتأخير ، والحطّ والرَّفْع ، والترهيب والترغيب ، فإنَّهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . فإن أمكنَتْهم الحيلة فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى ألَّف . له ، فهو الذى فصدوه وأرادوه . وإن كان السيد المؤلَّف فيه الكتاب نحريرًا نقَّابًا[2] ، ونِقْريسًا[3] بليغًا ، وحاذقًا فَطِنًا ، وأعجزَتْهم الحيلة ، سرقوا معانى ذلك الكتاب ، وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتابًا وأهدوه إلى ملك آخر ، ومتُّوا[4] إليه به ، وهم قد ذمّوه وثلبوه لمَّا رأوه منسوبًا إلىَّ ، وموسومًا بى . وربَّما ألَّفتُ الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأحيله على من تقدَّمنى

---

(١) النصاحة : الخلوص .

(٢) النقاب : الرجل العلامة ، أو النافذ فى الأمور .

(٣) النقريس : الطبيب الماهر المدقق .

(٤) مت إليه بحرمة : توصل بقرابة أو دالة .

عصرُه مثل ابن المقفّع والخليل وسَلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابى ، ومَن أشبه هؤلاء من مؤلّفى الكُتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علىّ ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيّرونه إماماً يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عنّى لغيرهم من طلاّب ذلك الجنس . فتثبت لهم به رياسة يأتمّ[1] بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمى ، ولم يُنسب إلى تأليفى[2] .

الكتاب

كان الجاحظ يحب الكتاب حبًّا جمًّا ، وقد قضى حياته يطالع الكتب ويؤلفها حتى أصبحت جزءاً من ذاته وأطيب لذاته . وها هو ذا يخاطب من انتقد كتبه ويفصل منافع الكتب عموماً.ويقول :

ثم لم أرَكَ رضيت بالطعن على كل كتاب لى بعينه ، حتى تجاوزتَ ذلك إلى أن عِبتَ وضع الكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تُصرف بها الوجوه . وقد كنتُ أعجب من عيبك البعضَ بلا علم ، حتى عِبت الكلَّ بلا علم . ثم تجاوزْتَ ذلك إلى التشنيع . ثم تجاوزتَ ذلك إلى نَصْب[3] الحرب ؛ فعبتَ الكتاب ، ونعمَ الذخر والعُقْدة[4] هو ! ونعم الجليس والعُدَّة ، ونعمَ النشرة والنزهة ، ونعم المشتغَل والحرفة ، ونعمَ الأنيس لساعة الوحدة ، ونعمَ المعرفةُ ببلاد الغُربة ، ونعمَ القرين والدَّخيل ، ونعمَ الوزير والنَّزيل !

والكتاب وِعاءٌ مُلِئَ عِلْماً ، وظَرْفٌ حُشِيَ ظرفًا[5] ، وإناءٌ شُحن

---

(١) ائتمّ به : اقتدى . وائتمه : اتخذه إماماً .

(٢) من رسالة « فضل ما بين العداوة والحسد » .

(٣) نصب له الحرب : أقامها عليه .

(٤) العقدة : ما فيه بلاغ الرجل وكفايته من الرزق .

(٥) الظرف : الوعاء . والظرف : الكياسة والذكاء البارع .

مُزَاحًا وجِدًّا ؛ إن شئت كان أبين من سحبان وائل[١] ؛ وإن شئت كان أعيا من باقل[٢] ؛ وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره ؛ وإنْ شئتَ عجبتَ من غرائب فرائده . وإن شئتَ ألْهتْكَ طرائفُه ، وإن شئتَ أشْجتكَ مواعظه . ومن لك بواعظ مُلْه ، وبزاجرٍ مُغْرٍ ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس ، وببارد حارّ ! وفى البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئ :

قُلْ لزُهيرٍ إذا انتحَى رشـــدا ... أقْلِلْ أو اكْثِرْ فأنْتَ مهذارُ
سخنتَ من شدَّة البرودة حـ ... ـتَّى صرْتَ عندى كأنك النارُ
لا يَعْجَبِ السامعون من صفتى ، ... كذلك الثلجُ بـــاردٌ حـــارُ

ومن لك بطبيب أعرابى ! ومن لك برومى هندى ، وبفارسى يونانى ! وبقديم مولّد[٣] ؟ وبميت مُمَتَّع ! ومن لك بشىء يجمع لك الأول والآخِر والناقصَ والوافر ، والخفىَّ والظاهر ، والشاهِدَ والغـــائب ، والرفيعَ والوضيع ، والغث والسمين ، والشكلَ وخلافَه ، والجنسَ وضِدَّه !

وبعد ، فمتى رأيت بستانًا يُحمل فى رُدن[٤] ، وروضةً تُقَلّ فى حِجْر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء! ومن لك بمؤنس لاينام إلا بنوملك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ! آمن من الأرض ؛ وأكتم للسرّ من صاحب السرّ ! وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة !

وقد قال ذو الرّمّة لعيسى بن عُمَر[٥] : « اكتب شعرى ؛ فالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ ! » لأن الأعرابى ينسى الكلمة وقد سهر الشاعر فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم يُنْشِدُها الناس ، والكتابُ لا يَنْسى ، ولا

---

(١) سحبان : رجل من بنى باهلة تضرب به المثل فى الخطابة .
(٢) باقل : رجل يضرب به المثل فى العى .
(٣) المولد : خلاف القديم .
(٤) الردن : مقدم كم القميص .
(٥) عيسى بن عمر الثقفى مولى خالد بن الوليد . إمام فى النحو واللغة وقد روى عن الحسن البصرى والعجاج بن رؤبة .

ولا يبدل كلاماً بكلام .

وعبت الكتاب ، ولا أعلم جاراً أبرّ . ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ولا معلّماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقلّ جناية ، ولا أقل إملالاً وإبراماً ، ولا أحفل أخلاقاً ، ولا أقلّ خلافاً وإجراماً ، ولا أقلّ غيبة ، ولا أبعدَ من عَضيهة[1] ، ولا أكثرَ أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقلّ تصلُّفاً وتكلّفاً ، ولا أبعد من مِراء ، ولا أترك لشغَب ، ولا أزْهد فى جدال . ولا أكف عن قتال من كتاب! ولا أعلم قريناً أحسن موافاةً . ولا أعجل مُكافأة ، ولا أحضَر معونة ، ولا أخفّ مؤونة ؛ ولا شجرةً أطول عمراً ، ولا أجْمَع أمراً ، ولا أطيب ثمرةً ؛ ولا أقرب مُجْتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد فى كل إبّان من كتاب ! ولا أعلم نِتاجاً فى حداثة سنّه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ؛ ومن الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القويمة والتجارب الحكيمة : ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب[2] !

البيان

قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقّاد المعانى : المعانى القائمة فى صدور العباد ، المتصوَّرة فى أذهانهم ، والمتحلّجة[3] فى نفوسهم ، والمتّصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستوره خفيّة ، وبعيدة وحشيّة ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة فى معنى معدومة . لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه

(١) العضيهة : البهتان والكلام القبيح .

(٢) من كتاب « الحيوان » المقدمة . الجزء الأول ص ٣٨ – ٤٢ .

(٣) المتحلجة : المضطربة .

وخليطه[١]، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إيّاها . وهذه الخِصال هى التى تقرّبها من الفهم ، وتجليها[٢] للعقل ، وتجعل الخفىّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريبًا ؛ وهى التى تلخّص الملتبس[٣] وتحلّ المنعقد ، وتجعل المُهْمَلَ مقيَّداً ، والمقيَّد مُطْلَقًا ، والمجهولَ معروفًا ، والوحشىّ مألوفًا ، والغُفْلَ[٤] موسومًا ، والموسوم معلومًا . وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقّة المدخل ، يكون إظهار المعنى . وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبْيَنَ وأنْوَرَ ، كان أنفع وأنجع[٥] . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفىّ هو البيان الذى سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحثّ عليه . وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الأعجام . والبيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجُب دون الضمير ، حتّى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان بذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأىّ شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع . . .

وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عزّ وجلّ قد ألبسه من الجلالة ، وغشّاه[٦] من نور الحكمة على

---

(١) الخليط : المخالط ، أى المشارك والصاحب .
(٢) تجليها : تظهرها .
(٣) الملتبس : المختلط .
(٤) الغفل : مالا علامة فيه .
(٥) نجع الطعام أو الدواء أو الكلام : نفع .
(٦) غشى الشىء وعلى الشىء : غطاه .

حسب نيّة صاحبه وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه ، ومنزّهًا عن الاختلال ، مصونًا عن التكلُّف ، صنعَ فى القلب صنيعَ الغَيْث فى التُّرْبة الكريمة. ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة[1] .

الترجمة

أقبل أبناء ذلك العصر على النقل والترجمة فنقلوا علوم اليونان وحكمة الهنود وتواريخ الفرس ، وكان أكثر النقلة من السريان الذين لا يتقنون العربية إتقاناً جيداً ، فكان فى نقلهم سيئات كثيرة . وهذا الجاحظ يحدثنا عن حركة النقل ويبدى لنا آراءه فى الترجمة .

قال بعضُ من ينصر الشّعْر ويحوطه ويحتجُّ له : إنّ الترجمان لا يؤدى أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيّات حدوده، ولا يقدر أن يوفّيها حقوقها ويؤدّى الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجرىّ[2] ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقّها وصدقها إلاّ أن يكون فى العِلْم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلّف الكتاب وواضعه ؟ فمتى كان ، رحمه الله تعالى ، ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرّة (ابن قرّة) ، وابن قِهْر ، وابن وهيلى ، وابن المقفّع ، مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى

---

(١) من كتاب « البيان والتبيين » الجزء الأول – مصر ١٣١١ هـ ص ٢٣ .

(٢) الجرى : الوكيل .

كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة . وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضًا قد تكلّم بلسانَيْن علمنا أنه قد أدخل الضَّيْم عليها ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكُّن اللسان منهما مجتمعَيْن فيه كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنّما له قوّة واحدة ، فإن تكلّم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات . وكُلّما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقلّ ، كان أشدّ على المُترجِم ، وأجدر أن يُخطئ فيه ، ولن تجد البتّة مترجِمًا يفى بواحد من هؤلاء العلماء . هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين ؟ . .[1] .

---

(١) كتاب « الحيوان » الجزء ١ ص ٣٨ .

٢ ـ الجاحظ رجل الاعتزال والتحرى العلمى

العقل والحجّة

العجَب مِنْ تَرْكِ الفُقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلّمين القول فى تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يَعرف الناس النبىّ من المتنبّى[١] ، والصادق من الكاذب. وبها يعرفون الشريعة من السّنة ، والفريضة من النافلة[٢] ، والحظر من الإباحة ، والاجتماع من الفرقة ، والشُّذوذ من الاستفاضة ، والردّ من المعارضة ، والنار من الجنة ، وعامّة المفسدة والمصلحة ...

إنّ كل منطيق[٣] محجوج[٤] ، والحجّة حجّتان: عيان ظاهرة ، وخبر قاهر . فإذا تكلّمْنا فى العيان وما يفرع منه ، فلابُدّ من التعارف فى أصله ، والتعارف فى فرعه . فالعقل هو المستدِلّ ، والعيان والخبر هما علّة الإستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، ولا بُدّ لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال أحدهما [وجه مع إيجاب

---

(١) المتنبى : المدعى النبوة .

(٢) النافلة والنفل : ما تفعله مما لم يفرض ولم يجب عليك فعله ، ولقد استعمل ابن المفارض الفروض والنفل استعمالا لطيفاً فى الشعر حيث يقول :

أنتم فروضى ونفلى أنتم حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى إذا وقفت أصلى

(٣) المنطيق : البليغ الفصيح اللسان .

(٤) محجوج : مغلوب بالحجة .

الآخر ، والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان: أحدهما] شاهد عيان يدلّ على غائب ، والآخر مجيء خبر يدلّ على صدق[١] .

الشكّ طريق إلى اليقين

زعم لى ابن أبى العجوز أن الدّسّاس[٢] تلد ، وكذلك خبّرنى به محمّد ابن أيوب بن جعفر عن أبيه ، وخبّرنى به الفضل بن إسحق بن سليمان، فإن كان خبرهما عن إسحق، فقد كان إسحاق فى معادن العلم . وقد زعموا بهذا الإسناد أن الأرويّة[٣] تضع مع كل ولد وضعته أفعى فى مشيمة[٤] واحدة، وقال الآخرون : الأرويّة لا تعرف بهذا المعنى ، ولكنه ليس فى الأرض نمرة إلاّ وهى تضع ولدها وفى عنقه أفعى فى مكان الطوق ، وذكروا أنها تنهش وتعض ولا تقتل . ولم أكتب هذا لتقرّ به، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبنى الإقرار بهذا الخبر ، وكذلك لا يُعجبنى الإنكار له، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل . وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلمًا . فلو لم يكن فى ذلك إلاّ تعرُّف التوقّف ثم التثبُّت ، لقد كان ذلك ممّا يُحتاج إليه . ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوّة والضعف . ولمّا قال أبو الجهم للمكىّ : أنا لا أكاد أشك ؛ قال المكىّ : وأنا لا أكاد أوقن . ففخر عليه المكىُّ بالشك فى مواضع الشكّ ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين[٥] .

---

(١) من كتاب « حجج النبوة » .
(٢) الدساس : حية خبيثة .
(٣) الأروية : أنثى الوعول .
(٤) المشيمة : محل الولد تخرج معه عند الولادة .
(٥) من كتاب « الحيوان » الجزء ٦ ص ١٠ .

التعسُّف فى التَّفسير

تعرض الجاحظ فى اعتزاله لكثير من أمور الدين ولكثير ممن يعدون أنفسهم علماء فى تلك الأمور، وقد عمل على تفنيد آرائهم تارة بالحجة الراهنة ، وطوراً بالهزء والتهكم .

زعم بعض المفسّرين أن السنَّوْر [١] خُلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خلق من سلحة[٢] الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذّوا بكثرة الفار وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس . فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفياهم مؤونة الجرذان . ولما تأذوا برائحة نجوهما[٣]. شكوا ذلك إلى نوح وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح زوج خنازير ، فكفياهم مؤونة رائحة النجو . وهذا الحديث نافق عند العوامّ وعند بعض القُصّاص[٤] .

تخليط بعض العلماء

شاعت الطريقة العلمية فى عهد الجاحظ من استقراء وتحر وإعمال العقل ، والبلوغ إلى الحقيقة عن طريق الشك ، والاختبار وما إلى ذلك ، ويظهر ذلك فى ما يلى .

ومما لا أكتب لك من الأخبار العجيبة التى لا يجسُر عليها إلاّ كل وَقّاح[٥] أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلّف الكتب ويقرؤها ويُدارس أهل العِبَر[٦]

---

(١) السنور : الهر .
(٢) السلحة : التغوط والنجو .
(٣) النجو : ما يخرج من البطن من ريح أو غائط .
(٤) كتاب « الحيوان » الجزء ٥ ص ١٠٦ .
(٥) الوقاح : ذو الوقاحة .
(٦) أى يقرأ عليهم .

ويتحفظها . زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن إسحق : أنا رأيت العَفْص والبلوط فى غصن واحد ، قال : ومن الغُصن ما يكون مثل الأُكَر . وقد خبَّرنى بذلك غيره وهو يُشبه تحوُّل الأنثى ذكراً والذكر أنثى . وقد ذكرت العرب فى أشعارها الضِّباع والذئاب والسبع والعِسبار[١] وجميع الوحوش والحشرات والأحناش ، وهم أخبر الخلق بشأن الضبع ، فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف . وقد ذكرت العلماء الضباع فى مواضع من الفُتْيا[٢] لم نرَ أحداً ذكر ذلك . وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن النمر تضع فى مشيمة[٣] واحدة جرواً[٤] وفى عنقه أفعى قد تطوقت به . وإذا لم يأتنا فى تحقيق الأخبار شعر شائع أو خبر مستفيض لم نلتفت لِفُتْمَهُ[٥] .

الجاحظ وأرسطاطاليس

سار الجاحظ على طريقة علمية، وقد اعتمد أرسطو فى كتاب الحيوان ، إلا أنه لا ينقاد إلى كل أقواله وآرائه ، ويعرف أن العلم يتطور ويتقدم ، وها هو ذا يتعرض له ويقف عند بعض آرائه موقفاً يشبه الحيادى فيقول :

ذكر صاحب المنطق[٦] أن الطير الكبير الذى يُسمى باليونانيَّة «أغتيوليس» يُحكم عشه ويتقنه ، ويجعله مستديراً مُداخلاً كأنه كرة معمولة . وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدَّارصينى[٧] من موضعه ، فيفرش به عُشه ،

---

(١) العسبار : ولد الضبع من الذئب ، أو ولد الذئب .

(٢) الفتيا : ما أفتى به العلم ، وهى اسم من أفتى العلم إذا بين الحكم .

(٣) المشيمة : محل الولد تخرج معه عند الولادة .

(٤) الجرو : ولد كل سبع .

(٥) من كتاب « الحيوان » — الجزء ٧ ص ٤٩ .

(٦) صاحب المنطق : أرسطو .

(٧) الدراصينى : شجر هندى يكون بتخوم الصين كالرمان .

ولا يعشِّش إلاّ فى أعالى الشجر المرتفعة المواضع . قال : وربَّما عمد الناس إلى سهام يشدُّون عليها رصاصًا ثم يرمون بها أعشتها فيسقط الدار صينىّ فيلتقطونه ويأخذونه . . . ولستُ أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدَّارصينى ، وإن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائراً ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس أو باليمن ، فيؤمّ ويعمد نحو بلاد الدَّارصينى وهو لم يجاوز موضعه ، ولا قرب منه ؛ وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد[١] أو من القواطع[٢] . وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصّحصحان[٣] الأملس وبطون الأودية وأهضام[٤] الجبال بالتدويم[٥] فى الأجواء وبالمضىّ على السَّمْت[٦] ، لطلب ما لم يره ولم يشمَّه ولم يذقه . وأخرى فإنّه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشًا له ومهاداً إلاّ باختلاف[٧] الطويل . وبعد فإنه ليس بالواطئ الوثير[٨] ولا هو له بطعام . فأنا وإن كنتُ لا أعرف العلَّة بعينها فلستُ أنكر الأمور من هذه الجهة ؛ فاذكرْ هذا[٩] .

الحِرذ والعقرب

يزعمون أنهم لم يروا قتالاً قطّ بين بهيمتين ولا سَبُعَيْن[١٠] أشدّ من قتال يكون بين جِرَذَيْن . فإذا رُبط أحدهما بطرف خيط وشد رجل الآخر

---

(١) الأوابد : غير المقيمة .
(٢) القواطع : المقيمة .
(٣) الصحصحان : ما استوى من الأرض .
(٤) الأهضام : بطون الأودية .
(٥) التدويم : التحليق .
(٦) السمت : الطريق والمحجة .
(٧) الاختلاف إلى المكان : التردد إليه .
(٨) الوثير الوطىء اللين .
(٩) كتاب « الحيوان » الجزء ٣ ص ١٦٢ .
(١٠) السبع : المفترس من الحيوان مطلقاً .

بالطرف الآخر فلهما عند ذلك من الجلَب[١] والخمش والعضّ والتَّنييب[٢] والعِفَاس[٣] ما لا يوجد بين شيئين من ذوات العِقار[٤] والهراش[٥]. إلا أن ذلك ما داما فى الرِّباط ؛ فإذا انحلاّ وانقطع ولىّ كلُّ واحد منهما عن صاحبه وهرب فى الأرض وأخذ خلاف جهة الآخر .

وإن جُعلا فى إناء من قوارير ، أعنى الجُرذ والعقرب — وإنما ذكرت القوارير لأنها لاتستر عن أعين الناس صنعهما ، ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان — فالفارة عند ذلك تَختِل[٦] العقرب فإن قبضت على إبرتها قرضتها ، وإن ضربتها العقرب ضربًا كثيراً فاستنفدت سمّها كان ذلك من أسباب حتفها[٧] .

---

(١) الجلب : اختلاط الأصوات .

(٢) التنييب : العض بالأنياب .

(٣) العفاس : الضرب بالرجلين .

(٤) العقار : المنافرة .

(٥) الهراش : الخصام .

(٦) ختله : خدعه وأخذه بالحيلة .

(٧) من كتاب « الحيوان » — الجزء ٥ ص ٧٧ .

٣ ـ الجاحظ مصوّر عصره

(١) المذاهب والنزعات الدينية :

الزّنادقة وكُتبهم

كثر الزنادقة فى عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فراح الجاحظ يضرب على أيديهم ويظهر فساد عملهم . وهو فى ما يلى يدلى برأيه فى التأليف والمؤلفات فيقول :

لو كانت كتُب الزّنادقة كتب حكَم ، وكتب فلسفة ، وكُتُب مقاييس وسنن نبيِّين وتَبيين . أو لو كانت كُتُبهم كُتُبًا تُعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سُبُل الكَسْب . والتجارات ، أو كُتب ارتفاقات [١] ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطَن والآداب — وإن كان ذلك لا يُقَرّب من غِنًى ولا يُبعد من مأثم — لكانوا مِمَّن قد يجوز أن يُظنّ بهم تعظيم البيان ، والرغبة فى التّبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم المِلّة ... والذى يدلّ على ما قُلنا أنه ليس فى كُتُبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف . ولا صنعة أدب . ولا حكمة غريبة . ولا فلسفة . ولا مسألة كلاميّة ، ولا تعريف صناعة . ولا استخراج آلة . ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين . ولا مناضلة عن نحلة [٢] . . . لا ترى فيها موعظة حسنة . ولا حديثًا مونِقًا . ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصّة ؛ فأىّ كتاب أجهل وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على

---

(١) الارتفاق : الانتفاع .

(٢) النحلة : جمعها نحل : المذهب والديانة .

النَّاس الإطاعةُ والتخرُّج بالديانة على جهة الاستبصار[١] والمحبَّة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين . والناس لا يحبُّون إلاّ دينًا أو دُنْيا .

مناظرة بين المأمون وأبى على الزنديق

شاعت فى عصر الجاحظ المناظرات كما كانت شائعة عند اليونان ، وكانت وليدة العلم والسعى وراء الحقيقة فى جميع ميادين المعرفة . وقد فسحت لها الحرية الدينية فى المجال الواسع . وكان المأمون من الداعين إليها والمشتركين فيها رامياً من ورائها إلى اجتماع الطوائف على ما هو أصلح للدين . إلا أنه كان يأبى الشتم والبذاءة فى المناظرات لأن الشتم عى والبذاءة لؤم .

ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذى كان يُكنى بأبى علىّ ، وذلك عند ما رأى من تطويل محمّد بن الجهم ، وعَجْز العُتْبىّ ، وسوء فهم القاسم بن سيَّار ، فقال له المأمون : أسألك عن حَرْفَيْن فقط ، خبِّرنى هل ندِمَ مُسيءٌ قطُّ على إساءَتِه ، أو نكون نحن لم نندم على شىء كان منَّا قط؟ قال : بل ندم كثير من المُسيئين على إساءَتهم . قال : فخبِّرنى عن الندم على الإساءة ، إساءة أو إحسان ؟ قال : إحسان. قال : فالذى ندم هو الذى أساء أو غيره ؟ قال : الذى ندم هو الذى أساءَ. قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشرّ ، وقد بطل قولكم : إن الذى ينظر نظر الوعيد غير الذى ينظر نظر الرحمة . قال : فإنى أزعم أن الذى أساء غير الذى ندم . قال : فندم على شىء كان منه ، أو على شىء كان من غيره ؟ فقطعه بمسألته ، ولم يتُب ولم يرجع حتى مات[٢] .

---

(١) الاستبصار : التأمل .

(٢) من كتاب « الحيوان » الجزء الرابع ص ١٤١ .

المانويّة

المانوية أصحاب مانى وقد قال بمبدأين فى العالم مبدإ الخير ومبدإ الشر .

إنّ أُناساً حين جهلوا الأسباب والمعانى ، وقصّروا فى الخلْقة عن تأمُّل الصواب والحكمة فيها ، خرجوا إلى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا خَلْق الأشياء ، وزعموا أن كونَها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بُنيت أتقن بِناء ، وفُرشت أحسن فَرْش ، وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووُضع كُلُّ شىء من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يَسْعَوْن فيها محجوبة أبصارهم فلا يُبصرون هيئة الدار وما أُعِدّ فيها ، وربَّما عثر الواحد منهم بالشىء قد وُضع فى موضعه وأُعِدّ لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمَّر وتسخَّط وذمّ الدارَ وبانيها .

فهذه حال هذا الصِّنف فى إنكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لمّا غَبِيَتْ أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل فى الأشياء ، صاروا يجولون فى هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه فى إتقان خلقته ، وصواب هيئته ، وربّما وقف الواقف منهم على الشىء يجهل سببه والأرَبَ فيه ، فيُسرع إلى ذمّه وعيبه ووصْفه بالخطإ والإحالة[1] . كالذى أقْدَمَتْ عليه وجاهرت به المنانيّةُ الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال . فحقّ على من أنعم الله عليه بمعرفته ، ووفّقه لتأمُّل هذه الخليقة ، والوقوف على ما فى خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ، بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصّر فى إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد فى نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان ، لتقوى دواعى الإيمان ، وتخيب مكيدة الشيطان .

---

(١) الإحالة : المحال والباطل .

الجاحظ والمجوسىّ

انتشرت الحرية الدينية فى عهد الجاحظ ، واتسع المجال للمساجلات الكلامية والمعارضات المذهبية حتى إن المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، ومن ذلك ما رواه الجاحظ إذ قال :

قد عارضنى بعض المجوس [١] وقال : فلعلّ أيضًا صاحبكم إنّما توعّد أصحابه بالنار ، لأنّ بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دَمَق [٢] ، وإنّما هى ناحية الحرور [٣] والوَهج والسّموم [٤] ، لأنّ ذلك المكروه أزْجَرُ لهم ، فرأى هذا المجوسىّ أنه قد عارضنى ، فقلتُ له : إنّ أكثر بلاد العرب موصوفة بشدّة الحرّ فى الصّيف ، وشدّة البرد فى الشّتاء ، لأنّها بلاد صخور وجبال ، والصخر يقبل الحرّ والبرد ، ولذلك سَمَّتِ الفُرْس بالفارسية العرب والأعراب : « كهيان » ، و « الكه » هو الجبل . فمتى أحببتَ أن تعرف مقدار برد بلادهم فى الشتاء ، وحرّها فى الصّيف ، فانظر فى أشعارهم . وكيف قسموا ذلك ، وكيف وصفوه . لتعرف أن الحالتين سواء عندهم فى الشدّة . والبلاد ليس يشتدّ بردها على كثرة الثلج وقلّته ، فقد تكون بالمدة أبرد وثلجها أقلّ ؛ والماء ليس يجمد للبرد فقط ، فيكون متى رأينا بالمدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر ؛ وقد تكون الليلة باردة جدًّا ، وتكون متغيّرة ، فلا يجمد الماء ويجمد فيهما هو أقلّ برداً وقد يختلف جمود الماء فى الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنّون . وقد خبّرنى من لا أرتاب بخبره أنّهم كانوا فى موضع من الجبل يستغشون [٥] به بلبس المبطّنات ومتى صبّوا ماء فى إناء زجاج ووضعوه تحت السّماء جمد من

---

(١) « المجوس » : مذهب الفرس يجعلون أصل العالم النور والظلمة ، إلا أن النور أزلى والظلمة محدثة ، وتدور فلسفتهم على سبب امتزاج الظلمة بالنور ، وخلاص النور من الظلمة وهو المعاد .

(٢) الدمق : ريح وثلج ، معرب « دمه » الفارسية .

(٣) الحرور : الريح الحارة .

(٤) السموم : الحر الشديد النافذ فى المسام .

(٥) يستغشون : يتغطون .

ساعته . فليس جمود الماء بالبَرْد فقط ، ولا بُدّ من شروط ، ومقادير ، واختلاف جواهر ، ومقابلات أحوال ، كسرعة البرد فى بعض الأذْهان . وإبطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله فى الماء المغلىّ ، وفى الماء المتروك على حاله ، وكاختلاف عمله فى الماء والنبيذ ، كما يعترى البول من الخثورة [١] والجمود ، على قدر طبائع الطعام والقلة ، والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ . وحجة أخرى على المجوس ، وذلك أنّ محمداً صلّى الله عليه وسلم لو كان قال لم أبعث إلا إلى أهل مكة لكان له متعلّق من جهة هذه المعارضة ، فأما وأصل نبوّته ، والذى عليه مخرج أمره ، وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته ، أنه المبعوث إلى الأحمر والأسود وإلى الناس كافّة ، وقد قال الله تعالى : « قُلْ يَاأَيُّهَا الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » وقد قال الله تعالى : « نذيراً للبشر » : فلم يبقَ أن يكون مع ذلك قولهم معارضة ، وأن يُعَدّ من باب الموازنة [٢] .

(ب) الشعراء والقيان وأصحاب اللهو

الشعراء

ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين إنما تعلموا المنطق لصناعة التكسُّب [٣] ؟ وهؤلاء قوم بودّهم أن أرباب الأموال قد جاوزوا حدّ السَّلامة إلى الغفلة ، حتى لا يكون للأموال حارس ، ولا دونها مانع ! فاحذرهم ، ولا تنظر إلى بزّة أحدهم ، فإن المسكين أقنع منه ؛ ولا تنظر إلى موكبه ، فإن السائل أعفّ منه .

---

(١) الخثورة : الغلظ .

(٢) من كتاب « الحيوان » الجزء ٥ ص ٣٥ .

(٣) التكسب : طلب الرزق .

واعلم أنه فى مَسْكِ مِسكين [١] ، وإن كان فى ثياب جياد ، وروحه روح نذل ، وإن كان فى جرم [٢] ملك ؛ وكلهم ، وإن اختلفت وجوه مسألتهم ، واختلفت أقدار مطالبهم ، فهو مسكين . إلا أنَّ واحداً يطلب العِلْق [٣] ، وآخر يطلب الخِرق ، وآخر يطلب الدَّوانيق [٤] ، وآخر يطلب الألوف . فجهة هذا هى جهة هذا ، وطُعْمة [٥] هذا هى طعمة هذا ، وإنما يختلفون فى أقدار ما يطلبون ، على قدر الحذق والسَّبب . فاحذر رُقاهم [٦] ، وما نصبوا لك من الشَّرَك ، واحرُسْ نِعمتك وما دسّوا لها من الدواهى ، واعملْ على أن سِحْرَهم يَسْتَرِقُ الذهن ، ويختطفُ البصر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مِنَ البيان لَسِحْراً » . وسمع عُمَر بن عبد العزيز رجلا يتكلَّم فى حاجة فقال : « هذا والله السِّحْرُ الحلال » . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا خلابة » [٧] . واحذر احتمال مديحهم ، فإن مُحْتَمِل المديح فى وجهه كمادح نفسه . إن مالك لا يسع مريديه ، ولا يبلغ رضى طالبيه ، ولو أرضيتهم بإسخاط مثلهم لكان ذلك خُسْرانًا مُبِينًا ، فكيف ومن يسخط أضعاف من يرضى ؟ وهجاء الساخط أضر من فقد مديح الراضى . وعلى أنهم إذا اعتوروك [٨] بمشاقصهم [٩] ، وتداولوك بسهامهم ، لم ترَ ممَّن أرضيته بإسخاطهم أحداً يناضل عنك ، ولا يهاجى شاعراً دونك ، بل يخليك غرضًا لسهامهم ،

---

(١) أى هو فى جلد مسكين ، أى أنه حقير .

(٢) الجرم : الجسم .

(٣) العلق : النفيس من كل شىء .

(٤) الدوانق ج دانق وهو سدس الدرهم ، معرب « دانك » الفارسية ، ومعناه الحبة (أى أنه بوزن الحبة من الحنطة ونحوها) .

(٥) الطعمة : الرزق .

(٦) الرق ج رقية وهى العوذة .

(٧) أى لا خداع .

(٨) اعتوروك : تداولوك .

(٩) المشاقص ج مشقص وهو النصل العريض أو الطويل .

ودريئة[١] لنبالهم ، ثم يقول : وما كان عليه لو أرضاهم ، فكيف يرضيهم ورضى الجميع شيء لا يُنال ؟ وقد قال الأول : وكيف يتّفق لك رضى المختلفين ؟ وقالوا : منع الجميع أرضى للجميع[٢] . . .

كذب بكذب

ومثل هذا الحديث ما حدثني به محمد بن يسير[٣] عن وال كان بفارس، إما أن يكون خالداً أخا مهرويه ، أو غيره ، قال : بينا هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب[٤] جهده ، إذ نجم[٥] شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه[٦] ومجده ، فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ! ففرح الشاعر فرحاً قد يُستَطارُ[٧] له ، فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحكَ ليتضاعف على قدر تضاعف القول ، أعطه يا فلان أربعين ألفاً ! فكاد الفرح يقتله ! فلما رَجَعَتْ إليه نفسه قال له : أنت — جُعِلْتُ فداك — رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلّما رأيتني قد ازددت فرحاً ، زدتني في الجائزة ، وقبولُ هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له[٨] ، ثم دعا له وخرج . قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان

---

(١) الدريئة : الهدف .

(٢) من كتاب « البخلاء » ص ٢٧٤ .

(٣) محمد بن يسير : شاعر بصري .

(٤) احتجب جهده : تخفى ما استطاع .

(٥) نجم : ظهر .

(٦) قرظه : مدحه .

(٧) قد يستطار له : أي قد يستخف الإنسان ويذهله .

(٨) يقول : قبول هذه الزيادة المتواصلة والثبات في مكاني من غير أن أخرج دليل على أني أجد العطاء قليلا ، فأقل من الشكر له لأنال الزيادة فيه . ولهذا أريد الخروج .

الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهمًا تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك !! وتريد أن تعطيه شيئًا ؟ قال : ومِنْ إنفاذ أمرك بدّ ؟ قال : يا أحمق إنما هذا رجل سرّنا بكلام ، وسررناه بكلام ! هو حين زعم أنى أحسنُ من القمر ، وأشدُّ من الأسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أمرى أنفذ من السنان ، جعل فى يدى من هذا شيئًا أرجع به إلى شىء ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا ، فنحن أيضًا نسرّه بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبًا ، فيكون كذب بكذب . وقول بقول ؛ فأمّا أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل ، فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به! (١).

القَيْنة

كثر الأرقاء فى عهد الجاحظ ، وكثر بينهم من يحسن صناعة الغناء ، فكتب الجاحظ رسالة فى القيان ، وبين حالهن فى عصر تعددت فيها النزعات وشاع الفساد ، فقال :

كيف تَسلم القَيْنة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة . وإنّما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الأَلْسُن والأخلاق بالمنشإ . وهى إنّما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخابيث وبين الخُلعاء والمجّان ، ومَن لا يُسمع منه كلمة جِدّ ، ولا يرجع إلى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروى الحاذقة منهنّ أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصَّوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلاّ عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنّما بُنيت كلها على ذكر الزّنى والقيادة ، والعشق والصَّبْوة ، والشوق والغُلْمة (٢) ،

---

(١) من كتاب « البخلاء » ص ٤٥ .

(٢) الغلمة : الشهوة والشبق .

ثم لا تنفكّ من الدراسة لصناعتها ، مُنكبّة عليها ، تأخذ من المُطارحين[١] الذين طرْحهم كلُّه تجميش[٢] ، وإنشادهم مُراودة ، وهى مضطرَّة إلى ذلك فى صناعتها ، لأنَّها إن جفتْها تفلّتت ، وإن أهملتها نقصتْ ، وإن لم تستفِدْ منها وقفتْ ، وكل واقف فإلى نُقصان أقرب ، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات ، وبين مَن لا يُحسنها ، التزيُّد فيها ، والمواظبة عليها ، فهى لو أرادت الهُدى لم تعرفه ، ولو بغت العِفة لم تقدر عليها[٣] .

قميص السكران

سكر زبيدة[٤] ليلة فكسا صديقًا له قميصًا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات[٥] ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فمضى من ساعته إلى منزله فجعله برنكانًا[٦] لامرأته ، فلما أصبح سأل عن القميص وتفقده ، فقيل له : إنك قد كسوته فلانًا ، فبعث إليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز! وبعد فإنى

---

(١) المطارحون : الذين يعلمون الغناء .

(٢) التجميش : المغازلة والملاعبة .

(٣) من « رسالة فى القيان » .

(٤) هو زبيدة بن حميد الصيرفى رجل غنى من أهل البصرة كان صيرفيًا تاجر رقيق .

(٥) البدوات : ج بداة وهى يبدو من الرأى . وتطلق للبدوات على الآراء المختلفة .

(٦) البرنكان هو الكساء الأسود أو الكساء مطلقاً ، وقد جاءت الكلمة فى الشعر فيما أنشد الجاحظ :

إنى وإن كان إزارى خلقاً وبرنسانى شملا قد أخلقا
قد جعل الله لسانى مطلقا

وقد كتب عنه العلامة دوزى Dozy فصلا فى كتابه « معجم الملابس »
Dictionnaire détaillé des noms vètements ches Arabes
ويصفه بأنه كساء كبير يلف الجسم كله يستعمله الرجال والنساء . . . (انظر ص ٢٧٣ — ٢٧٥ من « البخلاء » تحقيق طه الحاجرى) .

أكره أن لا يكون لى حَمْدٌ ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر ، فَرُدّه علىّ حتى أهبه لك صاحيًا عن طيب نفس ، فإنى أكره أن يذهب شىء من مالى باطلا ، فلما رآه قد صمَّم ، وأقبل عليه فقال : ياهناه[١]! إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشىء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله ، قال له الرجل : إنى قد خفت هذا بعينه ، فلم أضعْ جَنْبى إلى الأرض حتى جَيَّبْتُه[٢] لامرأتى ، وقد زدْتُ فى الكُمَّيْن ، وحذفت المقاديم[٣] ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه . قال : نعم ! آخذه لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك . قال : فإنه عند الصبَّاغ . قال : فهاته ! قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع قال : بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشرّ كله فى بيت وأغلق عليه فكان مفتاحُهُ السُّكر ! [٤] .

(ح) الحياة الاقتصادية

كلام بكلام

حدثنى إبراهيم بن السِّندى قال : كان على « ربع الشاذروان [٥] » شيخ لنا من أهل خُراسان ، وكان مصححًا ، بعيداً من الفساد ، ومن

---

(١) يا هناه : من لفظة « هن » كناية عن كل اسم جنس ومعناها شىء . ويقال للرجل : يا هن أقبل ، ويا هنان أقبلا ، ويا هنون أقبلوا . وتدخل على آخرها الهاء لبيان الحركة ، فتقول : يا هنه ، وتشبع الحركة فتتولد الألف ، فتقول : يا هناه أقبل .

(٢) جيب القميص : جعل له جيباً والمقصود هنا أنه فصله لامرأته .

(٣) المقاديم ج مقدم وهو ضد المؤخر .

(٤) من كتاب « البخلاء » ص ٨٠ .

(٥) ربع الشاذروان : لعله حى من أحياء بغداد ، فتكون بغداد مقسمة إلى أرباع ، ويكون هذا الشيخ مولى على هذا الربع يقوم بعمل القاضى أو ما أشبه ذلك أو لعله بناء من الأبنية المكينة تشبيهاً له بشاذروان مدنية تستر الذى يقول ابن خرداذبه إنه مبنى بالصخر وأعمدة الحديد وملاط الرصاص . أو لعله بحسب وصف البشارى عمل من الأعمال الهندسية التى كان يقصد بها إلى تنظيم الرى فهو نوع من القناطر أو الخزانات نسب الربع إليه . (انظر البخلاء ، تحقيق طه الحاجرى)

الرشاء[١] ، ومن الحكم بالهوى ، وكان حفيًّا جدًّا ، وكذلك كان فى إمساكه ، وفى بخله ، وتدنيقه[٢] فى نفقاته ، وكان لا يأكل إلا ما لا بدَّ منه ، ولا يشرب إلاّ ما لا بُدَّ له منه ، غير أنه إذا كان فى غداة كل جمعة ، حمل معه منديلا فيه جردقتان[٣] ، وقطع لحم سكباج[٤] مبرّد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان[٥] ، وأربع بيضات ، ليس منها بدّ ، ومعه خلال[٦] ، ومضى وحده حتى يدخلَ بعض بساتين الكرخ ، وطلب موضعًا تحت شجرة ، وسط خضرة ، وعلى ماء جار ؛ فلهذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرّةً ، ومن هذا مرّةً ، فإن وجد قَيِّم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لى بهذا ، أو أعطنى بهذا رُطَبًا[٧] إن كان فى زمان الرُّطَب — أو عنبًا — إن كان فى زمان العنب — ويقول له : إياك إياك أن تحابينى[٨] ولكن تجوّد[٩] لى ، فإنك إن فعلت لم آكلْهُ ، ولم أعد إليك ، واحذر الغَبَنْ فإن المغبون لا محمودٌ ولا مأجورٌ . فإن أتاه به أكل كلّ شىء معه ، وكلّ شىء أتى به . ثم تَخَلَّل[١٠] ، وغسل يديه . ثم يمشى مقدار مئة خطوة ، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة ، ثم ينتبه فيغتسل ويمضى إلى المسجد .

---

(١) الرشاء : لعل صوابه « الرشى » من الرشوة .

(٢) التدنيق : التقتير .

(٣) الجردقة : الرغيف معرب « كرو » بالفارسية وقد ذكره أبو النجم فى شعره حيث قال :

كان بصيراً بالرغيف الجردق

(٤) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل وربما جعل فيه زعفران . وهو معرب « سكبا » بالفارسية ومعناه طعام بخل .

(٥) الأشنان : (يونان) نوع من النبات .

(٦) الخلال : ما تخلل به الأسنان .

(٧) الرطب : التمر قبل تمام نضجه .

(٨) حاباه فى البيع : ساهله وقد تكون العبارة هنا : « إياك أن تحابينى » أى تكلفنى الحياء .

(٩) تجود تخير الجيد .

(١٠) تخلل : أزال الخلالة أى بقية الطعام ، من بين أسنانه .

هذا كان دأبه كل جمعة . قال إبراهيم : فبينا هو يوماً من أيامه يأكل فى بعض المواضع ، إذ مرَّ به رجلٌ فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال : هَلُمَّ عافاك الله . فلمَّا نظر إلى الرجل قد انثنى راجعًا يريد إن يَطْفِرَ[1] الجدول أو يتعدّى النهر قال : مكانك ! فإن العجلة من عمـــل الشيطان فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراسانىّ وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدّى ! قال : ولم ذلك ، وكيف طمعتَ فى هذا ! ومن أباح لك مالى ؟ قال الرجل : أوَ ليس قد دعوْتنى ؟ قال : ويلك ! لو ظننتُ أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام ! الأمر فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالس ، وأنت المارّ ، تبدأ أنت فتُسلّم ، فأقول أنا حينئذ مجيبًا لك : وعليكم السلام ، فإن كنتُ لا آكل شيئًا سكتُّ أنا ومَضَيتَ أنت ، وقعدتُ أنا على حالى . وإن كنت آكل ، فهاهنا بيانٌ آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : «هَلُمَّ» وتجيبُ أنتَ فتقول : «هنيئًا» ، فيكون كلام بكلام ! فأما كلام بفعال ، وقولٌ بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف ! وهذا يخرج علينا فضلاً كثيراً ! قال : فورد على الرجل شيئًا لم يكن فى حسابه فَشُهِرَ[2] بذلك فى تلك الناحية ، وقيل له[3] : قد أعفيناك من السلام ومن تكلُّف الردّ ، قال : ما بى إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفى أنا نفسى من «هلمّ» وقد استقام الأمر[4] .

---

(١) طفر : وثب فى ارتفاع .

(٢) أى الخراسانى .

(٣) أى جعل أهل الناحية يقولون للخراسانى .

(٤) من كتاب البخلاء ص ٤٣ .

مريم الصَّناع

قال أصحابُنا من المسجديّين : اجتمع ناس فى المسجد ممنْ ينتحل الاقتصاد فى النفقة ، والتنمية لِلمال ، (من أصحاب الجمع والمنع[١]) وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذى يجمع على التحابّ[٢] ... فأقبل عليهم شيخٌ فقال : هل شعرتم بموت مريم الصناع[٣] فإنها كانت من ذوات الاقتصاد ، وصاحبة إصلاح ، قالوا فحدثنا عنها . قال : نوادرُها كثيرةٌ ، وحديثها طويل ، ولكنى أخبرُكم عن واحدة فيها كفايةٌ . قالوا : وما هى ؟قال : زَوَّجَتْ ابنتَها وهى بنتُ اثنتى عشرة ، فحلّتها الذهب والفضة ، وكستها المَرْوى[٤] والوشى ، والقز والخز ، وعلقت المعصفر[٥] ، ودقت الطيب ، وعظمت أمرها فى عين الخَتَن[٦] ، ورفعت من قدرها عند الأحماء[٧] ، فقال لها زوجها : أنَّى لك هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عند الله ! قال : دعى عنك الجملة ، وهاتى التفسير ، والله ما كنت ذات مال قديمًا ، ولا ورثته حديثًا ، وما أنت بخائنة فى نفسك ، ولا فى مال بعلك[٨] ، إلا أن تكونى قد وقعت على كَنْز ؛ وكيف دار الأمر فقد أسقطتِ عنى مؤونة ، وكفَيْتنِى هذه النائبة ! قالت : اعلم أنى منذ يوم ولدتها ، إلى أن زوَّجتها . كنت أرفع من دقيق كل عجنة حَفَنة[٩] وكنا كما قد علمت نخبز فى كل

---

(١) كناية عن البخلاء .
(٢) التحاب : مصدر تحاب : أحب كل واحد صاحبه .
(٣) الصناع : الحاذقة فى الصنعة .
(٤) المروى : نسبة إلى بلدة فى العراق على شط الفرات كانت مشهورة بصناعة الثياب .
(٥) المعصفر : المصبوغ بالعصفر (وهو صبغ أصفر اللون) من الثياب .
(٦) الختن : الصهر .
(٧) الأحماء جمع حمو : أبوزوج المرأة وأبوامرأة الرجل .
(٨) البعل : الزوج .
(٩) الحفنة : ملء الكفين .

يوم مرة ، فإذا اجتمع فى ذلك مكوك[١] بعتُه ، قال زوجها : ثبَّت الله رأيك ، وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كُنْتِ له سَكَنًا ، وبارك لمنْ جُعِلْتِ لَهُ إلفًا[٢] .

المسرجة والقنديل

قال مثنى بنُ بشير : دخل أبو عبد الله المروزىّ على شيخ من أهل خراسانَ ، وإذ هو قد استصبح فى مِسْرَجة[٣] خزَف من هذه الخزفية الخُضْر ، فقال له الشيخُ : لايجيء والله منكَ أمرٌ صالح أبداً ، عاتبتك فى مَسَارج[٤] الحجارة ، فأعْتبتنى[٥] بالخزَف ! أوَ ماعلمتَ أنَّ الخزَف والحجارة يَحْسُوان[٦] الدّهنَ حسواً ؟ قال : جُعِلْتُ فداك ! دفعتُها إلى صديق لى دهّان فألقاها فى المِصْفاة شهراً حتى رَوِيَتْ من الدُّهن ريًّا لا تحتاج معَه أبداً إلى شيء ! قال : ليس هذا أريدُ ، هذا دواؤُه يسيرٌ ، وقد وَقَعْتُ عليه ، ولكن ما علمتَ أن موضعَ النار من المِسْرَجَة فى طَرَف الفَتيلة لا ينفكُّ من إحراقه النارُ وتجفيفه وتنشيف ما فيه ، ومتى ابْتَلَّ بالدُّهن وتسقّاهُ ، عادت النارُ عليه ، فأكلَتْهُ ، هذا دأبُهما ، فلو قِسْتَ مايشرب ذلك المكانُ من الدُّهن ، بما يستمدُّه طرَفُ الفَتيلة منه ، لعلمتَ أنَّ ذلك أكثرُه . وبعد هذا فإنَّ ذلك الموضعَ من الفَتيلة والمِسرَجَة لا يزالُ سائلاً جاريًا . ويُقالُ إنَّكَ متى وضعتَ مسرجةً فيها مصباحٌ ، وأخرى لا مصباحَ فيها ، لم تلبثْ

---

(١) المكوك : معيار يكال به والأصل أنه طاس يشرب به .
(٢) كتاب البخلاء — ص ٥٢ .
(٣) المسرجة : السراج .
(٤) المسارج : جمع مسرجة .
(٥) أعتبه : أرضاه .
(٦) حسا : شرب .

إلا ليلة أو ليلتين ، حتى ترى السُّفلى ملآنةً دُهنًا . واعْتَبِرْ أيضًا ذلك بالملْح الذى يوضعُ تحت المِسْرَجَة ، والنُّخالة[1] التى تُوضَع هُنَاكَ لتسويتها وتَصْويبها ، كيف تجدهما ينعصران دهنًا : وهذا كلُّه خسرانٌ وغبنٌ ، لا يَتَهاوَنُ به إلاَّ أصحابُ الفساد . على أنَّ المُفْسِدين إنَّما يُطْعِمُونَ النَّاسَ ، ويَسْقُون النَّاسَ ، وهُمْ على حال يستخلفون شيئًا ، وإن كان رَوْثًا[2] . وأنت إنما تُطْعِمُ النَّارَ وتَسْقِى النار . ومَنْ أطْعَمَ النَّارَ . جَعَلَهُ الله يوم القيامة طَعامًا للنَّار ! قالَ الشيخُ : فكيفَ أصنَعُ ، جُعِلْتُ فِداك ؟ قال : تَتَّخِذُ قِنديلاً ، فإنَّ الزُّجاجَ أحْفَظُ من غيره ، والزُّجاج لا يعرفُ الرَّشْحَ ولا النَّشَفَ ولا يَقْبَلُ الأَوْساخَ التى لا تزول إلاَّ بالدَّلْك الشَّديد ، أو بإحراق النَّار . وأيُّهما كان ، فإنَّه يُعيدُ المِسْرَجَةَ إلى المَعْطَش الأوَّل ، والزجاجُ أبْقَى على الماء والتُّراب من الذَّهب الإبْريز ، وهو مع ذلك مصنوعٌ ، والذَّهبُ مَخْلُوقٌ ، فإنْ فضَّلْتَ الذَّهبَ بالصَّلابة ، فضَّلْتُ الزَّجاجُ بالصَّفاء . والزَّجاجُ مُجَلٍّ والذَّهبُ ستَّار ، ولأنَّ الفَتِيلةَ إنَّما تكونُ فى وَسَطِه ، فلا تَحْمَى جوانبُه بوَهَج المصباح ، كما تَحْمَى بموضع النَّار من المِسْرجة . وإذا وقع شعاعُ النَّار على جوهر الزُّجاج ، صار المصباحُ والقِنديلُ مصباحًا واحداً ، وردَّ الضياءَ كلُّ واحدٍ منهُما على صاحبِه . واعتبر ذلك بالشُّعاع الَّذى يسقطُ على وجه المرآة ، أو على وجه الماء ، أو على الزُّجاجة ، ثمَّ انْظُرْ كيف يتضاعفُ نُورُهُ ، وإن كان سقوطُه على عين إنسان أعْشاه[3] وربَّما أعماه ، وقال جلَّ ذكرُه : « اللهُ نورُ السَّمَوَات والأرْض مَثَلُ نُوره كَمِشْكاةٍ فِيهَا مِصْباحٌ

---

(١) النخالة : ما بقى فى المنخل من القشر ونحوه .

(٢) الروث : الزبل .

(٣) أعشاه : جعله أعشى أى ميء البصر .

المصباحُ فى زُجاجَةِ الزُّجاجَةُ كأنَّها كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يشاءُ » . والزيت فى الزُّجاجةِ نورٌ على نور ، وضوءٌ على ضوء مضاعف ، هذا مع فضلِ حُسْنِ القِنديلِ على حُسْنِ مَسارجِ الحجارةِ والخزف[1] .

معاذة العنبرية

حدَّث شيخ قال: لم أرَ فى وضع الأمور مواضعها ، وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبريّة . . . أهدَى إليها ، العام ، ابن عم لها أضحيَّة فرأيتها كئيبة حزينة ، مفكرة مطرقة . فقلت لها : « مالك يا معاذة ؟ » قالت : « أنا امرأة أرملة ، وليس لى قيِّم[2] ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحىّ . وقد ذهب الذين كانوا يدبِّرونه ويقومون بحقه . وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئًا لا منفعة فيه ؛ ولكن المرء يعجز ، لا محالة[3] . ولست أخاف من تضييع القليل ، إلا أنه يجرُّ تضييع الكثير . أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل كالخُطَّاف[4] ويسمَّر فى جذع[5] من جذوع السقف ، فيعلَّق عليه الزُّبُل[6] والكيران[7] وكل ما خيف عليه من الفأر

(١) كتاب البخلاء — ص ٣٦ .

(٢) قيم المرأة : زوجها ومن يقوم بأمرها .

(٣) هذا مثل ، ومعناه : لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز .

(٤) الخطاف : الحديدة العوجاء .

(٥) الجذع : ساق النخلة والشجرة ؛ وعلى الجذوع يبنى سقف البيت .

(٦) الزبل : جمع زبيل وهو القفة أو الجراب أو الوعاء .

(٧) الكيران ج كور : الرحل ، وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج .

والنمل والسنانير وبنات وَرْدان[١] والحيات ، وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار المِندفة[٢] وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة. وأما قحف الرأس[٣] واللَّحيان[٤] وسائر العظام فسبيله أن يُكسَّر بعد أن يُعرَق[٥] ، ثم يُطبخ ؛ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام[٦] وللعصيدة[٧] ، ولغير ذلك . ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ؛ فلم ير الناس وَقوداً قط أصفى ولا أحسن لهبًا منها . وإذا كانت كذلك ، فهى أسرع فى القدر ، لقلة ما يخالطها من الدخان . وأما الإهاب[٨] فالجلد نفسه جراب . وللصوف وجوهٌ لا تُدفع . وأما الفَرْث[٩] والبعر فحطب ، إذا جُفّفَ ، عجيب » .

ثم قالت : « بقى علينا الانتفاع بالدم ؛ وقد علمتُ أن الله ، عزَّ وجلَّ ، لم يحرّم من الدم المسفوح[١٠] إلا أكله وشربه ؛ وأن له مواضع يجوز فيها ولا يُمنع منها . وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كيّة فى قلبى ، وقذى فى عينى ، وهمًّا لا يزال يُعاودنى » .

فلم ألبث أن رأيتها قد تطلّقت[١١] وتبسمت ، فقلت : « ينبغى أن يكون قد انفتح لك باب الرأى فى الدم » . قالت : « أجل ، ذكرت أن عندى قدوراً شامية جُدُداً . وقد زعموا أنه ليس شىء أدبغ ، ولا أزيد فى قوّتها من

---

(١) بنات وردان : دويبات كريهة الريح تألف الأماكن القذرة فى البيوت .

(٢) المندف والمندفة : خشبة النداف التى يندف بها القطن .

(٣) قحف الرأس : العظم الذى فوق الدماغ .

(٤) اللحى : عظم الحنك الذى عليه الأسنان ، (وهما لحيان) .

(٥) عرق العظم : جرده من اللحم .

(٦) الإدام : ما يؤكل مع الخبز فيطيبه.

(٧) العصيدة : دقيق يلبت بالسمن ويطبخ.

(٨) الإهاب : الجلد .

(٩) الفرث : الزبل الذى فى الكرش .

(١٠) الدم المسفوح أى السائل ، محرم فى القرآن .

(١١) تطلق الوجه : ضد انقبض ؛ يريد : أشرق وجهها وانبسط .

التلطيخ بالدم الحار الدسم . وقد استرحت الآن ، إذ وقع كل شيء موقعه » .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : « كيف كان قديد[١] تلك الشاة ؟ » قالت : « بأبي أنت ! لم يجئ وقت القديد بعد . لنا في الشحم والألية والجنوب[٢] والعظم المعروق وغير ذلك معاش ؛ ولكل شيء إبّان[٣] . »[٤]

الرّيح والشمسُ تأخذان من سائر الأشياء

قال خاقان بنُ صبيح : دخلت على رجل من أهل خراسانَ ، وإذا هُو قد أتانا بمِسْرجة فيها فتيلةٌ في غاية الدّقّة ، وإذا هو قد ألقى في دُهنِ المِسرجة شيئًا من مِلح ، وقد علّقَ على عمودِ المَنارة عوداً بخيط ، وقد حزَّ فيه حتى صار فيه مكانٌ للرّباط . فكان المصباحُ إذا كاد يَنْطفئ أشْخصَ رأسَ الفَتيلة بذلك . قال : فقلت له : ما بالُ العودِ مربوطًا ؟ قال هذا عودٌ قد تشرَّبَ الدُّهنَ ، فإن ضاع ولم يُحفَظْ ، احتجْنا إلى واحد عطشان ، فإذا كان هذا دأْبَنا ودأبَه ضاعَ من دُهْنناق الشَّهرِ بقَدْرِ كفَاية ليلة ! قال : فبينا أنا أتعجّب في نفسي وأسألُ اللهَ جلَّ ذِكْرُه العافيه وَالسّتْرَ ، إذ دخل شيخٌ من أهل مَرْو ، فنظر إلى العود فقال : يا أبا فلان ! فَرَرْتَ من شيء ووقعت في شبيه به ! أما تعلمُ أنَّ الرّيح والشّمسَ تأخذان من سائرِ الأشياء ؟ أو ليس قد كان البارحةَ عند إطفاء السّراجِ أرْوَى[٥] وهو عند إسراجِك الليلةَ أعطش ؟ قد كنتُ أنا جاهلاً مثلكَ حتّى وفّقني اللهُ

---

(١) القديد : اللحم الذى جعل قطعاً وجفف فى الشمس ملوحاً .

(٢) الجنوب ج جنب .

(٣) إبان الشيء : أوله وحينه .

(٤) من كتاب البخلاء .

(٥) أروى : أكثر رياً .

إلى ما هو أَرْشَدُ : اربِطْ ــ عافاك اللهُ ــ بدَلَ العودِ إبرةً أو مسلّةً صغيرةً ، وعلى أن العود والخلال[٢] والقصبة ربما تعلّقت بها الشعرةُ من قطن الفتيلة إذا سويناها بها ، فتُشخصُ بها ، وربّما كان ذلك سببًا لانطفاء السّراج ، والحديدُ أملسُ ، وهو مع ذلك غيرُ نشّافٍ . قال خاقان : ففي تلك الليلة عرفتُ فضلَ أهل خراسانَ على سائر الناس ، وفضلَ أهلِ مرو على سائر أهل خراسان[٣] .

---

(١) المسلة : الإبرة الكبيرة .

(٢) الخلال : الأعواد الدقيقة .

(٣) كتاب « البخلاء» ص ٣٥ .

٤ ـ الجاحظ رجل العلم والأدب

تقسيم مخلوقات العالم

وأقول : إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء : مُتّفِق، ومختلف، ومتضادّ . وكلّها فى جملة القول : جمادٌ ، ونامٍ . وكان حقيقة القول فى الأجسام من هذه أن يُقال : نامٍ ، وغير نامٍ . ولو أن الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنامٍ اسماً كما وضعوا للنامى اسماً ، لاتبعنا أثرهم ؛ وإنما ننتهى إلى حيث انتهوا . وما أكثر ما[1] تكون دلالة قولهم : « جماد » كدلالة قولهم : « مَوَات » ؛ وقد يفترقان فى مواضع بعض الافتراق .

وإذا خرجت من العالم إلى الأفلاك ، والبروج ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، وجدتَها غير نامية . ولم تجدهم يسمُّون شيئًا منها بجماد ، ولا موات ، وليْس لأنها تتحرّك من تلقاء أنفسها ، لم تُسمَّ مواتًا ولا جماداً . وناس يجعلونها مُدْبرة . وناس غير مُدْبرة . ويجعلونها مسخَّرة وغير مُسَخَّرة ، ويجعلونها أحياء من الحيوان . إذ كان الحيوان إنما يحيا بإحيائها له ، وبما تعطيه وتُعيره . وإنما هذا منهم رأى . والأمم ، فى هذا كله ، على خلافهم . ونحن ، فى هذا الموضع ، إنما نعبّر عن لغتنا ؛ وليس فى لغتنا إلا ما ذكرنا .

والناس يسمُّون الأرض جماداً . وربما يجعلونها مواتًا ، إذا كانت لم تُنبت قديمًا ، وهى موات الأرض . وذلك كقولهم : « من أحيا أرضًا مواتًا فهى له » . وهم لا يجعلون الماء ، والنار ، والهواء ، جماداً ولا مواتًا ، ولا يسمُّونها حيوانًا ، ما دامت كذلك ؛ وإن كانت لا تُضاف إلى النماء والحسّ .

---

(١) ما ، الأولى : تعجبية . وما ، الثانية : مصدرية .

والأرض هى أحد الأركان الأربعة التى هى : الماء ، والأرض ، والهواء ، والنار . والاسمان لا يتعاوران عندهم إلاّ الأرض .

ثم النامى على قسمين : حيوان ونبات .

والحيوان على أربعة أقسام : شىء يمشى ، وشىء يطير ، وشىء يسبح ، وشىء ينساح[١] . إلا أن كل طائر يمشى ؛ وليس الذى يمشى ولا يطير يسمَّى طائراً .

والنوع الذى يمشى أربعة أقسام : ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات . على أن الحشرات راجعة فى المعنى إلى مشاكلة طباع البهائم والسباع[٢] . . .

قوَّة الحيَّة

وليس فى الأرض شىءٌ جسمُه مثلُ جسم الحية إلاّ والحيةُ أقوى بَدَنًا منه أضعافًا . ومن قوَّتها أنها إذا أدخلتْ رأسها فى جُحْرها أو فى صَدْع[٣] ، إلى صدرها ، لم يستطع أقوى الناس ، وهو قابضٌ على ذَنَبها بِكلْتا يديه ؛ أن يخرجها ، لشدة اعتمادها ، وتعاون أجزائها ، وليست بذى قوائم لها أظفار ، أو مخالب لها أظلاف[٤] ، تنشبها فى الأرض تتشبَّث بها وتعتمد عليها . وربما انقطعت فى يد الجاذب لها من أنها لدنة[٥] ، ملساء ، عَلِكَة[٦] . فيحتاجُ الرفيق فى أمرها ، عند ذلك ، أن يُرْسلها من يديه بعضَ الإرسال ، ثم يَنْشُطَها[٧]

---

(١) ينساح : يمشى على بطنه .

(٢) من كتاب « الحيوان » المقدمة الجزء الأول ص ٣٦ – ٣٧ .

(٣) الصدع : الشق فى شىء صلب .

(٤) الأظلاف : جمع ظلف : الظفر لما اجتر من الحيوان كالبقرة والظبي .

(٥) لدنة : لينة .

(٦) العلك : اللزج .

(٧) نشطه : نزعه ، شده .

كالمختطف والمختلس ، وربما انقطع ذنبها فى يد الجاذب لها .

فأمَّا أذناب الأفاعى فإنها تَنْبت . ومن عجيب ما فيها ، من هذا الباب أن نابها يُقطع فينبت ، حتى يتم نباته فى أقلّ من ثلاث ليال !

والخطَّاف ، فى هذا الباب ، خلاف الخنزير . لأن الخطَّاف إذا قلعت إحدى عينيه رجعت ، وعين البِرذَون[١] يركبها البياض فيذهب فى أيام يسيرة . وناب الأفعى يُحتال له بأن يُدخل فى فيها حماض أترُجّ[٢] ويطبق لَحْيَيْها الأعلى على الأسفل ، فلا تقتل بعضّتها أياماً صالحة . والمغناطيسُ الجاذب للحديد إذا حُكّ عليه الثوم لم يجذب الحديد . والأفعى لا تدور عينُها فى رأسها ، وهى تلد وتبيض ؛ وذلك أنّها إذا طرقت بيضها تحطم فى جوفها ، فترمى بِفِراخها أولاداً ، حتّى كأنها من الحيوان الذى يلد حيواناً مثله .

وفى الأفاعى من العجب أنها تُذْبح حتى يُفْرَى[٣] منها كل ودج[٤] ؛ فتبقى كذلك أياماً لا تموت . فأمرتُ الحاوى[٥] ، فقبض على خرزة عنقها فقلت له : اقبضها من الخرزة التى تليها قبضاً رفيقاً . فما فتح بينها بقدر سمّ[٦] الإبرة حتى بردت ميتة . وزعم أنه قد ذَبَح غيرها من الحيّات ، فعاشت على شَبَه بذلك . ثم إنه فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالأفعى ، فماتت بأسرع من الطَّرْف[٧] .

---

(١) البرذون : التركى من الخيل وهو خلاف العراب .

(٢) ثمر شجر بستانى من جنس الليمون .

(٣) فرى الشىء : قطعه .

(٤) الودج : عرق إلى جانب ثغرة النحر ؛ وهما ودجان يميناً وشمالا .

(٥) الحاوى : الذى يربى الحيات .

(٦) سم الإبرة : ثقبها .

(٧) من كتاب « الحيوان » .

عَين الأفعى

وزعم محمد بن الجهم أن العيون التى تضىء بالليل كأنها مصابيح : عيون الأسد ، والنمور ، والسنانير ، والأفاعى . فبينا نحن عنده ، إذ دخل عليه بعض من يجلب الأفاعى من سِجِسْتان ، ويعمل التّرياقات [١] ويبيعها أحياء ومعمولة ، فقال له : حدّثهم بالذى حدّثتنى به من عين الأفعى !

قال : نعم ! كنت فى منزلى نائمًا فى ظلمة ، وقد كنت جمعت رؤوس أفاعٍ كنّ عندى لأرمى بها . وأغفلتُ تحت السَّرِير رَأسًا واحداً . ففتحتُ عَيْنى تجاه السرير الذى فى الظلمة ، فرأيتُ ضياء ، إلاّ أنّه ضئيل ، ضعيف ، دقيق . فقلت : « عين غول ! أو بعض أولاد السعّالى[٢] » وذهبت نفسى فى ألوان من المعانى ، فقمت فقدحتُ ناراً ، وأخذْت المصباح معى ، ومضيتُ نحوالسرير . فلم أجد تحته إلاّ رأسَ أفعى . فأطفأتُ السّراج ، ونِمْت ؛ وفتحتُ عينى فإذا ذلك الضوء على حاله . فنهضتُ فصنعت كصنيعى الأول ، حتى فعلتُ ذلك مراراً . (قال) فقلت لآخر مرة : « لا أرى شيئًا إلاّ رأس أفعى ، فلو نحّيْتُه ! » فنحّيْتُه ، وأطفأت السراج ثم رجعتُ إلى منامى . ففتحتُ عينى فلم أرَ الضوء ، فعلمتُ أنّه من عين الأفعى . ثم سألت عن ذلك ، فإذا الأمر حقٌّ ، وإذا هو مشهورٌ فى أهل هذه الصناعة [٣] .

---

(١) التّرياقات : جمع ترياق : دواء يدفع السموم .

(٢) السعالى : جمع سعلاة وهى أنثى الغول .

(٣) من كتاب « الحيوان » .

حكمة الحيّة

حدثنا أبو جعفر المكفوف [١] النَّحْوىُّ العنبرى ، وأخوه رَوْحٌ الكاتب ، ورجالٌ من بنى العنبر : أن عندهم ، فى رمال بَلْعَنْبر [٢] ، حيةً تصيدُ العصافير وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهارُ واشتدَّ الحرُّ فى رمال بَلْعَنْبر . وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعِل ، ورمض [٣] الجندب ، غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوزٌ أو عودٌ ثابتٌ . فيجىءُ الطَّائر الصغير أو الجرادة ؛ فإذا رأى عوداً قائمًا ، وكره الوقوع على الرمل لشدَّة حرّه . وقع على رأس الحيَّة ، على أنها عودٌ ؛ فإذا وقع على رأسها ، قبضت عليه . فإن كان جرادةً أو جُعَلاً [٤] أو بعض ما لا يشبعها مثله ، ابتلعته وبقيت على انتصابها ؛ وإن كان الواقع عَلَى رأسها طائراً يُشبعها مثله . أكلته وانصرفت . وإنّ ذلك دأبها ما منع الرملُ جانبه فى الصيف والقيظ ، فى انتصاف النهار والهاجرة [٥] . وذلك أنّ الطائرَ لا يشكُّ أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقامَ الجذْلِ [٦] للحرباء ، إلى أن يسكن الحر ووَهج الرمل .

وفى هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحيَّة تهتدى لمثل هذه الحيلة ؛ وفيه جهلُ الطائر بفرق ما بين الحيوانِ والعود ؛ وفيه قلَّة اكتراث الحية للرمل

---

(١) المكفوف : الأعمى .

(٢) بلعنبر : أى بنو العنبر ، فخفف كما يخفف بلعم وبلحرث وبلقين أى بنو العم وبنو الحرث وبنو القين ؛ وذلك يختص بالأحرف القمرية .

(٣) رمض : احترق من شدة الحر .

(٤) الجعل : دويبة سوداء ذات جناحين سوداوين تطير بهما ؛ قيل حياته فى الزبل ويضربه ريح الورد إذا جعل تحته .

(٥) الهاجرة : انتصاف النهار وشدة الحر ، لأن الناس يستكنون إذ ذاك فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

(٦) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به .

الذى عاد كالجمر ، وصلح أن يكون ملّة [١] وموضعًا للخبزة ؛ ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرملُ على هذه الصفة . فهذه أعجوبة من أعاجيب ما فى الحيّات [٢] .

وفاء الكلب

قال أبو عُبيدة : خرج رجل إلى الجبّان[٣] ينتظر ركابه[٤]، فاتّبعه كلب كان له ، فضرب الكلب وطرده ، وكره أن يتّبعه ، ورماه بحجر . فأبى الكلب إلا أن يتبعه . فلما صار إلى الموضع الذى يريد فيه الانتظار ، ربض الكلب قريبًا . فبينما هوكذلك ، إذ أتاه أعداءٌ له يطلبونه بطائلة[٥] لهم عنده . وكان معه جار له وأخوه دِنيا[٦] فإسلماة وهربا عنه . فجُرِح جراحات ، ورمى به فى بئر غير بعيد القعر ثُم حُثِّى عليه [٧] التراب ، ثُمّ غُطِّى رأسه ، ثم كُمّم[٨] فوق رأسه منه[٩] له؛ والكلب فى ذلك يرخم[١٠]

---

(١) الملة : الرماد الحار ، وخبز الملة : ما يخبز فى ذلك الرماد .

(٢) من كتاب « الحيوان » .

(٣) الجبان : الصحراء .

(٤) الركاب : الإبل .

(٥) الطائلة : الترة والظلم ، والثار .

(٦) تقول : هوابن عم أو عمة ، أو ابن خال أو خالة ، أو ابن أخ أو أخت دنى ودنيا ودنية : أى هوابن عم لحا أى لاصق النسب ، وكذا ما يليه ؛ فإن ضمت الدال فى «دنيا» لم تصرف لأن الألف قد تعينت للتأنيث على الأصل ؛ وإن كسرت جاز صرفها وعدمه ، لجواز أن للتأنيث أو للإلحاق ؛ أما إذا أضيف « العم » وما بعده إلى معرفة ، كما إذا قيل : « هو ابن عمى » ، وجب النصب على الحال ، فيقال : « هوابن عمى دنيا » ، لأن « دنيا » نكرة ، فلا تكون نعتاً لمعرفة .

(٧) حثا عليه التراب : قبضه ورماه عليه ، وصبه عليه .

(٨) كمم : جمع .

(٩) منه : أى من التراب .

(١٠) يرخم : يرق له .

ويهر[١] . فلما انصرفوا أتى رأس البئر ؛ فما زال يعوى ،وينبش عنه ، ويحثو التراب بيده ، ويكشفه عن رأسه ، حتى أظهر رأسَهُ فتنفس ، ورُدَّت إليه الروحُ ، وقد كاد يموت ، ولم يبق منه إلا حُشاشة [٢] . فبينما هو كذلك إذ مرّ ناس ، فأنكروا مكان الكلب ، ورأوه كأنه يحفر عن قبر . فنظروا فإذا هم بالرجل على تلك الحال . فاستنشالوه[٣] ، فأخرجوه حيًّا ، وحملوه . حتى أدّوه إلى أهله[٤] .

كلب يحسب لصًّا

قال بِشرُ بن سعيد : كان بالبصرة شيخ من بنى نَهشَل[٥] يقال له عُرْوَةُ بن مَرْثَد، نزل ببنى أخت له فى سِكَّة [٦]، بنى مازن[٧]وبنو أخته من قُرَيْش . فخرج رجالهن إلى ضياعهم ، وذلك فى شهر رمضان، وبقيت النساءُ يُصلّين فى مسجدهن فلم يبق فى الدار إلا كلب يَعُسّ[٨] فرأى بيتًا ، فدخل. وانصفَق[٩] البابُ، فسمع الحركة بعض الإماء ، فظنّ أن لصًّا دخل الدار ، فذهبت إحداهنّ إلى أبى الأعزّ ، وليس فى الحىّ رجلٌ

---

(١) هر الكلب : صات دون نباح .
(٢) الحشاش والحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .
(٣) استنشالوه : رفعوه .
(٤) من كتاب الحيوان .
(٥) نهشل بن دارم : بطن من تميم .
(٦) السكة : الموضع الذى فيه دور مختلفة ومنازل متعددة لقوم يسكنون فيه ، وفى خلالها طريق وسبيل لهم .
(٧) بنو مازن : من بنى تميم .
(٨) عس : طاف فى الليل يحرس الناس ويكشل الريبة ؛ وهنا : يطوف ليف أهلا .
(٩) انصفق : ارتد وانغلق .

غيرُه ، فأخبرته فقال أبو الأعزّ : « ما يبتغى اللصّ منّا ؟ » ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى وقف على باب البيت ، فقال : « إيه[١] يا ملأمان[٢] ! أما والله إنك لى لَعارفُ ، وإنى بك أيضًا لعارفٌ ، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن ، شربْتَ حامضًا خبيثًا[٣] ، حتى إذا دارت الأقداح فى رأسك ، منّتك نفسك الأمانىّ[٤] ، وقلت : دورَ بنى عمرو[٥] ، والرجال خُلوف[٦] ، والنساءُ يُصلّين فى مسجدهنّ ، فأسرقهن[٧] . سَوءَة والله ! ما يفعل هذا الأحرارُ ! لَبِئسَ ، والله ، مامنتك نفسك ! فاخرج ، وإلا دخلت عليك ، فصرمتك منى العقوبة[٨] ! لايْمُ الله[٩] لتخرُجَنّ ، أو لأهتِفنّ هتفة مشؤومةً عليك ، يلتوى فيها الحيّان عمرو وحنظلَةُ[١٠] ويصير أمرك إلى تبّاب[١١] ويجىء سعدٌ[١٢] بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجالُ من ها هنا وها هنا ! ولئن فعلتَ ، لتكوننّ أشأَمَ مولود فى بنى تميم !

فلما رأى أنه لا يجيبه ، أخذ باللين ، وقال : اخرج يا بُنىّ ، وأنت مستور ؛ إنى ، والله ، ما أراك تعرفنى ، ولو عرفتنى لقد قنعت بقولى ، واطمأننت إلىّ . أنا عُروةُ بنُ مرثدٍ أبو الأعزّ المرثدىُّ ، وأنا خال القوم ، وجلدة ما بين

---

(١) إيه : كلمة زجر بمعنى حسبك .

(٢) يا ملأم ويا ملأمان : يالئيم .

(٣) الحامض الخبيث : أى الحامض من الخمر .

(٤) مناه الشىء وبه : جعله يتمناه .

(٥) بنو عمرو : أى عمرو بن تميم .

(٦) الخلوف : ج خلف وهم الذين ذهبوا من الحى .

(٧) فأسرقهن : أى أسرق الدور .

(٨) أى عاقبتك عقاباً صارماً .

(٩) أيمن الله وأيم الله : اسم الله : اسم وضع للقسم ، والتقدير أيمن الله قسمى ؛ وليم الله وليمن الله (لايم ولا يمن) : اللام فيهما لام الابتداء حذفت معها ألف الوصل إلا نادراً .

(١٠) حنظلة : حى من بنى تميم .

(١١) التباب : الخسران والهلاك .

(١٢) سعد : هم بنو سعد بن زيد مناة من تميم .

أعيُنهم [١] لا يعصونى فى أمر ؛ وأنا لك بالذِّمَّة كفيلٌ خفيرٌ [٢] أصيّرُك بين شحمة أُذنى وعاتِقى [٣] لا تُضار [٤] . فاخرج ، فأنت فى ذمّتى ، وإلاّ فإن عندى قَوْصَرَّتَيْن [٥] : إحداهما إلى ابنِ أُختى البارّ الوَصولِ [٦] ، فخذ إحداهما ، فانتَبِذْها [٧] حلالاً من الله تعالى ورسوله .

وكان الكلب إذا سمع أطرق [٨] ، وإذا سكت ، وثب يُريغ [٩] المخرج . فتهاتف الأعرابىّ ، أى تضاحك ، ثم قال : يا ألأم الناس وأوضعهم ، ألا يأنى لك [١٠] أنّا منذ الليلة فى واد ، وأنت فى آخر ! إذا قلت لك السوداءَ والبيضاءَ [١١] ، تسكت وتطرق ؛ فإذا سكتُّ عنك ، تُريغ المخرج ! والله لتخرجنّ بالعفو عنك ، أو لأَلجَنّ عليكَ البيت بالعقوبة !

فلما طال وقوفه ، جاءت جاريةٌ من إماءِ الحىّ ، فقالت : أعرابىٌّ مجنون ! والله ما أرى فى البيت شيئًا ! ودفعتِ الباب ، فخرج الكلب شدًّا [١٢] ، وحاد عنه أبو الأعز مُستلقيًا ، وقال : الحمد لله الذى مسخك كلبًا ، وكفانى منك حربًا ! ثم قال : تالله ، ما رأيت كالليلة . ما أراه إلاّ كلبًا . أما والله ، لو علمتُ مجاله لولجت عليه [١٣] .

---

(١) يقال : هو جلدة ما بين العينين : أى هو مثلها فى العزة والقرب .
(٢) الخفير : المجير والحامى والمحافظ .
(٣) العاتق : الكتف ؛ يقال : صيره بين شحمة أذنه وعاتقه أى فى عنقه ، أى فى قبضته .
(٤) ضاره الأمر : أضر به .
(٥) القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر ونحوه .
(٦) الوصول : الكثير الوصل وهو البر والعطاء .
(٧) انتبذها : اصنعها لك نبيذاً .
(٨) أطرق : سكت .
(٩) أراغ : لغة فى أراد .
(١٠) ألا يأنى لك : أى أما حان لك (أن تعرف) .
(١١) إذا قلت لك السوداء والبيضاء : إذا قلت لك كلمة تسوءك أو تسرك .
(١٢) شدًّا : عدواً .
(١٣) من كتاب « الحيوان » .

الذباب والبعوض

ذكر محمّدُ بن الجهم فيما خبرنى عنه به بعض الثقات أنه قال لهم ذات يوم : هل تعرفون الحكمة التى استفدناها فى الذباب ؟ قالوا : لا . قال : بلى ، إنها تأكل البعوض وتصده وتلقطُه وتنفيه ! وذلك أنى كنت أُريد القائلة [1] . فأمرت بإخراج الذباب . وطرح الستر ، وإغلاق الباب . قبل ذلك بساعة . فإذا خرجن . حصل فى البيت البعوضُ ، وقوى سلطانه . فكنت أدخلُ إلى القائلة فيأكلنى البعوض أكلاً شديداً . فأتيت ذات يوم المنزلَ فى وقت القائلة . فإذا ذلك البيت مفتوح ، والستر مرفوع ؛ وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك فى يومهم . فلما اضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئًا ؛ وقد كان غضبى اشتدّ على الغلمان . فنمت فى عافية . فلما كان من الغد ، عادوا إلى إغلاق الباب ، وإخراج الذباب . فدخلت ألتمس القائلة ، فإذا البعوضُ كثيرٌ . ثم أغفلوا إغلاق الباب يوماً آخر ؛ فلما رأيته مفتوحًا ، شتمتُهُم ؛ فلما صرت إلى القائلة . لم أجد بعوضةً واحدة . فقلت فى نفسى عند ذلك : أُرانى قد نمت فى يومَىْ الإغفال والتضييع ، وامتنع منى النوم فى أيام التحفُّظ والاحتراس ؛ فلم لا أُجرّب ترك إغلاق الباب فى يومى هذا ، فإن نمت ثلاثة أيام لا ألقى من البعوض أذًى مع فتح الباب علمتُ أن الصواب فى الجمع بين الذبّان والبعوض ، فإن الذبّان هى التى تفنيه ؛ وأن صلاح أمرنا فى تقريب ما كنّا نباعد . ففعلتُ ذلك ، فإذا الأمر قد تَمّ . فصرنا إذا أردنا إخراج الذبّان ، أخرجناها بأيسر حيلة ؛ وإذا أردنا إفناء البعوض ، أفنيناه على أيدى الذبّان بأيسر حيلة .

---

(١) القائلة : النوم فى نصف النهار .

القاضى والذّباب

ثم رجع بنا القول إلى إلحاح الذبان .

كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم يرَ الناس حاكمًا قط زِمِّيتًا [١] ، ولا رَكينًا [٢] ، ولا وقوراً حليمًا ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده فيأتى مجلسه فيحتبى [٣] ولا يتكئ . فلا يزال منتصبًا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يَحِلّ حُبْوته ، ولا يُحِلُّ رِجْلاً على رِجْل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيْه [٤] ، حتى كأنه بناء بنى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر . ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر . ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب . ثم ربما عاد إلى محله ؛ بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العشاء ، وينصرف . فالحق يقال : لم يقم فى طول تلك المدة والولاية ، مرةً واحدةً إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شربَ ماءً ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنُه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها . وكان مع ذلك ، لا يُحرك يده ولا يُشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلّم .

فبَيْنا هو كذلك ، ذات يوم ، وأصحابُه حواليه ، وفى السّماطَيْن [٥] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذُباب . فأطال المكْث ، ثم تحوّل إلى مؤْق [٦]

---

(١) الزميت : الكثير الوقار .
(٢) الركين : الرزين .
(٣) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .
(٤) الشقان : الجانبان .
(٥) أى منتظمين بالقرب منه .
(٦) مؤق العين : طرفها مما يلى الأنف .

عينه . فرام الصبر فى سقوطه على المُؤْق وعلى عضّه ونَفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يُحرّك أرنبته [١] ، أو يُغَضّن وَجْهَه ، أو يذب [٢] بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشَغَله ، وأوجعه ، وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبقَ جَفْنه الأعلى على جفنه الأَسفل ؛ فلم يَنْهَضْ . فدعاه ذلك إلى أن يُوالى بين الإطباق والفتح ، فتنحّى ريثما سكَنَ جَفْنه . ثم عاد إلى مُؤْقه بأشدَّ من مرّته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك . فكان احتمالُه أضعف وعَجْزُه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرّك أجفانه . وزاد فى شدّة الحركة ، وألحَّ فى فتح العين ، وفى تَتابُع الفتح والإطباق . فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته . ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحُّ عليه حتى استفرغَ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينيه بيده ففعل . وعاون القوم إليه ، ترمقه ، وكأنهم لا يُريدونه . فتنحّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته . ثم عاد إلى موضعه . ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كمّه . ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أنَّ فِعْلَه كُلَّه بعين من حضرَه من أمنائه وجُلسائه . فلما نظروا إليه قال : « أُشهد أن الذباب ألحُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغُراب . وأَستغفرُ الله ! فما أكثر من أعجبَتْهُ نفسُه فأراد الله ، عزَّ وجلَّ ، أن يُعرّفه مِنْ ضعفه ما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أنى عند نفسى من أضعف الناس ، فقد غلبنى وفضَحنى أضعفُ خلقه » . ثم تلا قولَه تعالى : « وإن يَسْلُبْهُمُ الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب ! » وكان بيّن اللسان قليل فُضول الكلام ؛ وكان مهيبًا فى أصحابه ، وكان أحدَ من لم يُطعن عليه فى نفسه ولا فى تعريض أصحابه للمنالة [٣] .

---

(١) أرنبة الأنف : طرفه .

(٢) ذب : دفع ورد .

(٣) من كتاب « الحيوان » الجزء ٣ ص ٢٤٣ .

إلحاح الذبّان على الجاحظ

فأما الذى أصابنى أنا من الذبّان ، فإنى خرجتُ أمشى من عند ابن المُبارك أريد دَيْر الربيع ، ولم أقدر على دابّة . فررتُ فى عشبٍ ونبات مُلْتفّ كثير الذبّان ، فسقط ذُباب من ذلك الذبّان على أننى . فطردته ، فتحوّل إلى عينى . فزدت فى تحريك يدى . فتنحّى عنى بقدر شدة حركتى وذبّى[1] عن عينى — ولذبّان الكلأ والغياض والرياض وقْع ليس لغيرها — ثم عاد إلىّ ، فعدتُ عليه . ثم عاد ، فعدتُ بأشدّ من ذلك . فلما عاد استعملْت كمّى ، فذببْت به عن وجهى . ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحثُّ السير[2] ، أؤمّلُ بسرعتى انقطاعَه عنى فلما عاد نزعتُ طيلسانى[3] من عنقى ، فذببْتُ به عنى بدلَ كمّى . فلما عاود ، ولم أجد له حيلة ، استعملتُ العَدْوَ ، فعدوتُ منه شَوْطًا لم أتكلف مثله مذ كنت صبيًّا . فتلقّانى الأندلسى فقال لى : « مالك ، يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ » قلت : « نعم ! أريد أن أخرج من موضع للذبّان على فيه سلطان » . فضحك حتى جلس وانقطع[4] عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جدًّا[5] .

---

(١) ذب : دفع وطرد .

(٢) حث السير : عجل فيه .

(٣) الطيلسان : كساء مدور أخضر لا أسفل له ، لحمته أو سداه من صوف ، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ . وهو من لباس العجم ؛ وهو لفظ معرب من « تالسان » الفارسية .

(٤) الضمير للذباب .

(٥) من كتاب « الحيوان » الجزء ٣ ص ٣٤٦ .

٥ ـ الجاحظ الضاحك المتهكم

التربيع والتدوير

كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر يدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً ، جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى البساطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة . وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها . فبرم منه الجاحظ وكتب إليه هذه الرسالة يسأله فيها مائة مسألة وأسلوبه فى ذلك أسلوب التهكم والاستهزاء .

أطال الله بقاءك وأتمّ نعمته عليك وكرامته لك . قد علمتُ ، حفظكَ الله ، أنك لا تحسد على شىء حسدك على حسن القامة ، وضخم الهامة ، وعلى حَوَر العين [١] وجودة القدّ ، وعلى طيب الأحدوثة والصنيعة المشكورة . وأن هذه الأمور هى خصائصك التى بها تكلَف [٢] ، ومعانيك التى بها تلهج . . . وبعد ، أبقاك الله فأنتَ فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حدٌّ لا يُفل ، وغربٌ [٣] لا ينثنى . وهو قياسك الذى إليه تُنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب ، أن تقول : وما علىّ إن رآنى الناسُ عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق . وقد علموا ، أبقاك الله ، أن لك مع طول البادّ [٤] راكباً طول الظهر جالساً . ولكن بينهم فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعتَ مسائل ، ومن غريب ما أعطيتَ وبديع ما أوتيت أنّا لم نرَ مقدوداً واسع الجُفْرة [٥] غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنتَ المديد ، وأنت البسيط ،

---

(١) حور العين : اشتداد سواد سوادها فى اشتداد بياض بياضها واستدارة حدقتها ورقة جفونها .

(٢) كلف بالشىء : أولع به ولعاً شديداً .

(٣) الغرب : الحد .

وأنت الطويل ، وأنت المتقارب . فيا شعراً جمع الأعاريض [١] ، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمُّك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أنّ استفاضة عَرَضِك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سَمْكك [٢] ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عَرْضك ، وإذ قد سلّموا لك بالرّغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلّموا وأنت على دعواك فيما لم يُسلّموا . ولعمرى إن العيون لتُخطئ وإن الحواسّ لتكذب ، وما الحكم القاطع إلاّ للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلاّ للعقل ، إذ كان زِمَامًا على الأعضاء وعياراً على الحواسّ . . .

وبعد حديث طويل على هذا المنوال يوجه الجاحظ إلى خصمه أسئلته وإليك بعضاً منها :

خبّرنى عن معنى الفُرات على حقّه وصدقه ، وعن نضوب البحر وعن تنقُّص الأرض ، ولِمَ عمل الفَلَك فى هذا العالم وليس بينهما شبه ، وهلا عمل فيه بقدرة منه ، وهل يجوز أن يَعْمَل شيءٌ فى شيءٍ إلاّ والآخر يعمل فيه ؟ وخبّرنى مذكم كان الناسُ أمّةً واحدةً ، ولغاتُهم متساوية ؟ وبعد كم بطن اسودّ الزنجىّ وابيض الصقلبىّ ؟ ولِمَ صار اللون أسرعَ تنقُّصاً من الجمود ؟ ولِمَ كان الولد يجىء على شبه ما فى أبيه من الأمور الحادثة فى بدنه عن غير القديمة فى أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبىّ قطّ فى العرب مجنوناً . . .

جُعلت فداك أيّما أطول عمراً الناس ، أم عَيْر العانة [٣] ، أم الحيّة ، أم الضبّ ، ومتى تستغنى الحيّة عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضبّ بالنسيم ! . . .

---

(١) راجع الحاشية ١ فى صفحة ٢٨ .

(٢) السمك : الارتفاع .

(٣) العير : الحمار الوحشى . العانة : الأتان ، والقطيع من حمر الوحش .

وخبّرني عن جواهر الأرض ، وعن جمْع القار أشيء مفروغ من حقه أم أرض يستحيل إليه ؟ ولمَ عمل بعض السمّ في العصب ، وبعضه في الدم ، وبعضه فيهما جميعًا ؟ ولم كان بعضه سمّ بخاز وبعضه سم جهاز ؟ ولم صار لا يقتل مع العادة وقتل قبل العادة ، ألأنّ الطبائع تنكر الشيء الغريب أم لأنه ضدٌّ في نفسه ؟ وكيف صار مع ريق الأفعى ريق بعض الناس في القتل ، وفي أيّهما سمّ ؟ . .[1] .

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ – مصر ١٣٢٤ هـ .

obeikandl.com

١ المراجع العربية

الجاحظ : كتاب الحيوان . طبع مصر .

الجاحظ : كتاب البخلاء . طبع دمشق ١٩٣٨

الجاحظ : كتاب البيان والتبيين . طبع مصر ١٩٢٧

الجاحظ : مجموعة رسائل . طبع مصر ١٩٤٣

ياقوت : معجم الأدباء. دار المأمون ج ١٦ ص ٧٤ — ١١٤

ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ص ٤٩٠

الشهرستانى : كتاب الملل والنحل ص ٥٢ . ليبسك ١٩٢٣

ابن الأنبارى : طبقات الأمراء ص ٢٥٤

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد . القاهرة ١٩٣١

فيليب حتّى : تاريخ العرب . ج ٢ . بيروت ١٩٤٩

زهدى حسن جار الله : المعتزلة . القاهرة ١٩٤٧

جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى . القاهرة ١٩٣١

جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية. ج ٢ . القاهرة ١٩٣٠

أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون . ١. ص ٦٩—١٨٢. القاهرة ١٩٢٧

حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى . ص ٥٥٩— ٥٩١ . حريصا ١٩٥١

محمد كرد على : أمراء البيان . ج ٢ ص ٣١١ — ٤٨٧ . القاهرة ١٩٣٧

أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية . ص ١٧٦—٢٠١ بيروت

أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ١ ص ٤٠٨ — ٤٢٤ . القاهرة ١٩٣٨

أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ٣ ص ١٢٧ — ١٤١ . القاهرة ١٩٤١

شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى . ص ٥٨ — ٧٨ . القاهرة ١٩٤٦

طه حسين : من حديث الشعر والنثر . ص ٨٠ — ١٢٣ . القاهرة ١٩٣٦

شفيق جبرى : الجاحظ معلم العقل والأدب . القاهرة ١٩٤٨

حسن السندوبى : أدب الجاحظ . القاهرة ١٩٣١

خليل مردم : الجاحظ . دمشق ١٩٣٠

محمد المبارك : فن القصص فى كتاب البخلاء للجاحظ . دمشق ١٩٤٠

محمد فهمى عبد اللطيف : دعابة الجاحظ . الرسالة ٥ (١٩٣٧) ص ٢٢٠ ، ٢٥٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٨٥ ، ٥٠٨ .

عبدالملك عبداللطيف نورى : مع الجاحظ فى حياته وأدبه — الأديب ٥ ، عدد ١٢ : ٨ .

٢ — المراجع الأجنبية

Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam, T. I.

Brockelmann : Histoire des Peuples et des Etats Islamiques-Paris 1949.

Brockelmann : Gesch. d. Arab. Litterature, I, 152.

Brockelmann : Al-Djahiz, in Encycl. de l'Islam, T. I, 1028-1029.